الخطابة ووسائل تأثيرها

د. محجوب محمد آدم (★)

مُقَدِّمَة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه. **وبعد،،،**

فإنَّ الخطابة فن أدبي، يراد به إحداث تأثير فعَّال على المتلقي؛ لإقناعه والتسليم بما يدعو إليه الخطيب. وتنبع أهمية الخطابة من دورها الوظيفي في المجتمع، فقد اعتمد عليها الإنسان قديماً ليدفع بلسانه عن نفسه وقومه، كما لجأ إليها في الحضِّ على القتال، أو الدعوة إلى الصلح. واستعملها أداة للاتهام، أو الدفاع في ساحات القضاء، وفي الصراعات السياسية، واستعملها أداة من أدوات الإصلاح الاجتماعي؛ حين دعا المصلحون مجتمعاتهم بها إلى التمسُّك بالقيم المثلى، والأخلاق الحميدة، والتنفير مما يؤثر سلباً على المجتمع: أفراداً وجماعات.

وتبوّأت مكانة سامية في الإسلام، فشُرعت خطبة الجمعة والعيدين. وأصبحت أبرز وسائل تبليغ دين الله وشرعه إلى الناس، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبها يتم إرشاد الناس إلى ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم، ودعوة الناس إلى التأمُّل في ملكوت الله، والتفكُّر فيما يحويه الكون من عجائب الخلق، وبدائع الصنع، أو إثارة حمية الجند، ودفعهم إلى ساحات الجهاد، وزيادة قواهم المعنوية.

(★) أستاذ مشارك بكلية التربية جامعة الزعيم الأزهري، مراجع ومصحح لغوي بالمجلة.

وقد يقف الإنسان خطيباً في مواقف اجتماعية معينة كالتكريم، والاستقبال، والتوديع، والشكر، ونحوها. هذا؛ بجانب ما تقدّمه الخطابة من ثقافة وأدب للمتلقي.

ولا يقدر الخطيب على تحقيق هذه الأدوار المهمة وغيرها؛ إلاَّ إذا كان ملماً بأصول الخطابة، وقواعدها، ومتمرّساً بأساليبها؛ إذ يكون قادراً عندئذٍ على امتلاك القلوب، واستمالة النفوس، وتحريك العواطف نحو ما يريد.

أما بعد:

فلقد تناولتُ في هذه الورقة (مفهوم الخطابة)، وبيان أهميتها من خلال النصوص الشرعية وفي واقعنا المعاصر، مع بيان ما ينبغي أن يلتزمه الخطيب في إعداد الخطبة، من اختيار الموضوع، وجمع مادته وتنسيق أجزائه، وما ينبغي له في بناء الخطبة من عناصر. ومن ثَمَّ تعرضتُ لأهم وسائل التأثير الخطابي: من استدلال، واستدراج، وتوظيف للقصص، وضرب للأمثال، واقتباس، ووضحتُ أهم شروط الأسلوب الخطابي، وما ينبغي للخطيب مراعاته عند إلقائه للخطبة؛ حتى يحقق ما يرجوه من استمالة المتلقين، والتأثير فيهم، وإقناعهم بما يدعو إليه.

والله نسأل أن يتقبل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وبه التوفيق.

تعريف الخطابة:

الخطابة في اللُّغة: مصدر خَطَبَ، يَخْطُبُ. ويتعدى الفعل بنفسه وبحرف الجر، فيقال كما جاء في "المعجم الوسيط": "خَطَبَ الناس، وفيهم، وعليهم، خَطَابَةً وخُطْبَةً: ألقى عليهم خُطْبَة"[1].

والخُطبة: كلام يُلقى في جموع الناس، بهدف إقناعهم بالفكرة التي يدعو إليها الخطيب، والتأثير فيهم بما يبديه من حُجَج وغيرها، ومن ثَمَّ استمالة عواطفهم للوقوف إلى جانبه في تأييد فكرته، والعمل على حسب ما يدعو إليه.

وعرَّف عبد الجليل شلبي (الخطابة) بأنَّها:"أصول وقواعد ترشد الإنسان إلى فن مخاطبة الجماهير، بطريقة إلقائية، تشتمل على الإقناع والاستمالة". وعرَّفها أبو زهرة، بأنَّها: "صفة راسخة في نفس المتكلِّم، يقتدر بها على التصرُّف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم"[2].

فالإلقاء الخطابي الناجح لا بُدَّ من وجود شرطين أساسين فيه، وهما: الإقناع والاستمالة؛ وذلك أنَّ كثيراً من الناس قد يقتنعون بأشياء في قرارة أنفسهم، ويوقنون بخطورة ما يصنعون، كشارب الخمر والدخان؛ ولكن هذه القناعة لا تغيِّر في سلوكهم شيئاً، ولا تدفعهم إلى التخلي عما هم فيه وَفق هذه

(١) أمَّا الخِطبة ـ بكسر الخاء ـ فهي طلب المرأة للزواج، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ: (نهى رسول الله ﷺ أن يخطب الرجل على خِطبة أخيه). انظر: صحيح البخاري، ٧٥٢/٢، صحيح مسلم ١٠٢٨/٢.

(٢) عبد الجليل شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، طبعة دار الشروق، ١٩٧٧م، ص ١٣. محمد أبو زهرة: الخطابة، دار الفكر العربي، (القاهرة: ١٩٨٠م)، ص ١٩.

القناعة، والعمل بما فيها. بل يحتاجون إلى قوة تأثيرية معيَّنة تدفعهم إلى الإقدام والصمود، ومغالبة العادة والإغراء الذي يوقعهم في الباطل[1].

والخطيب البارع: هو الذي يتمكَّن من مخاطبة الجمهور، على اختلاف مداركهم، وثقافاتهم، وميولهم الفكرية والنفسية؛ بما يناسبهم من أفانين البيان، وطرائق الخطاب. ولن تصل إلى هذا التمكُّن إلاَّ إذا بدأت خطبتك برغبة قوية في طرح ما عندك، وعرفت تماماً ما الذي ستتحدَّث بشأنه. وعليك أن تتصرف بثقة دون أن تعتريك الهيبة ممن يجلسون أمامك، فإنَّ كثيراً منهم ينتظر ما تقوله باهتمام، وكثير منهم على استعداد لأن يتغاضى عما يقع في بعض كلامك من هنات، وثق أنَّه لا يخلو أحد مما يمكن أن يؤاخذ عليه؛ فما الداعي للارتباك إذن؟ فإذا كان الأمر كذلك، لم يتبق لك إلاَّ أن تقف وتخطب، وعندئذ تتولَّد عندك الثقة بالنفس؛ ومن المعروف أنَّه يمكنك أن تسيطر على أعصابك تماماً من خلال العادة والتدريب العملي.

أنواع الخطب:

تتنوَّع الخطب باختلاف موضوعها وغرضها. وأشهر أنواعها هي: الخطب الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والقضائية.

أولاً: الخطب الدينية:

هي التي تتناول دعوة الناس إلى الهدى ودين الحق، والتمسُّك بالقيم الدينية، والتنفير من فعل المنكرات، أو الترغيب في أنواع البر والخيرات، والتحلي بفضائل الأخلاق، ونحو ذلك مما يُلقى في المساجد ـ كما في خطبة

(١) انظر: خالد القريشي: الإلقاء الخطابي، دار العاصمة، ٢٠٠١م، ص ١٥.

الجمعة والأعياد ـ وما يتناوله الخطباء في المحافل والجمعيات الدينية، من شؤون السياسة، والاقتصاد، والمجتمع، من وجهة النظر الدينية، وما يهم المسلمين ويشغل بالهم من الأمور المستحدثة، والمسائل الجارية، والقضايا التي تتصل بمصالحهم.

كما تشمل الخطب التي يلقيها قادة الجيوش في ساحات الجهاد، حثّاً لجنودهم على القتال، وتحريضاً لهم على الاستبسال، وبيان ما أعدَّ الله للمجاهدين في سبيله من مكانة، وما أعدَّه للشهداء منهم من الجنان والحور العين، ونحو ذلك مما يناسب موضوع الجهاد في سبيل الله تعالى.

وللناس استعداد طيب لقبول الخطب الدينية، والتأثُّر بما يلقيه الخطباء من الوعظ والتوجيه؛ بسبب ما يتمتع به موضوع الدِّين من مكانة في النفوس، ولارتباطه بحياة المتدينين في الحياة وبعد الممات.

ثانياً: الخطب الاجتماعية:

هي الخطب التي تلقى في الاحتفالات العامة أو الخاصة؛ بغرض تكريم أو استقبال أو وداع أو تهنئة أو نحو ذلك. ويتناول بعضها المشكلات الاجتماعية بعامة، وتلك التي ظهرت في العصر الحديث، نتيجة نمو الوعي الاجتماعي؛ مثل: مشكلات الفقر، والغلاء، والتشرُّد، ورعاية الطفولة، وسوء الأحوال الصحية، ومشكلات المرأة، وقضايا العمال ... ونحوها.

ثالثاً: الخطب السياسية:

هي الخطب التي تتناول شؤون الحكم والدّولة، وعلاقة الأفراد والجماعات بها من حقوق وواجبات. أو تلك التي تتصل بأمور الدّولة الداخلية أو أمورها

الدّولية. وتشمل الخطب التي تلقى في المجالس النيابية أو الشورية للنظر في شؤون الدولة وأمور الرعية، أو تلك التي تُلقى في المؤتمرات السياسية، والصراعات الانتخابية، ونحوها.

رابعاً: الخطب القضائية:

ويُراد بها ما يُلقى في المحاكم ودور القضاء من خطب؛ كتلك التي يلقيها المحامون أو أعضاء النيابة أمام القضاة في قاعات المحاكم. ويعتمد الخطيب في مثل هذا النوع من الخطب؛ على عرض القضية في وضوح وجلاء، بعد تكييفها في حدود القوانين، ووَفق مواد القانون التي تختص بالقضية موضوع النظر[1].

إعداد الخطب

قد يشعر الإنسان في بداية تجربته للخطابة ببعض الارتباك والتوتر العصبي، ويصاب بالخوف وضعف الثقة بالنفس، بل قد يفقد قدرته على التصرُّف أو التفكير، أو تحديد ما ينبغي له من قول، بل ويتلاشى كل ما حضَّره من أفكار أو نقاط عن خطبته. وهذا أمر طبيعي لا في الخطابة فحسب؛ بل قد يعتريه هذا الخوف والارتباك في مواقف مشابهة يواجه فيه جمعاً من الناس، ويحدّثهم بصورة جادة، كما في حال التدريس، وهي الحالة التي تجعل بعض الناس يتهيبون حتى إمامة الصلاة، مع معرفتهم تماماً بكل ما يتصل بها،

(١) للنظر في أنواع الخطب وسماتها؛ انظر: علي محفوظ: فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، (القاهرة: ١٩٨٤م)، ص ٧٠ وما بعدها.

وحفظهم الجيِّد لما يقيم صلاتهم من قرآن. مع أنَّ هذا الارتباك لا يحدث عادة عند غير المتمرّسين على الخطابة إلاَّ لوقت قصير في اللحظات الأولى من إلقاء الخطبة. علماً بأنَّ مواجهة الناس في مثل هذه المواقف ليست أمراً صعباً مثلما يتخيَّل معظم الناس. وهي ليست موهبة فُطِرَ الإنسان بها، ولكنها أقرب ما تكون إلى ما يمارسه الناس من الألعاب، أو هي أشبه بقيادة سيارة، تبدو في بداية ممارستها صعبة أو مستحيلة، ويتعثر في أدائها، ولا يتمكن من التمرُّس بها دفعة واحدة، بل تنمو بالتدريب والممارسة، إذا ما كانت لديه رغبة كافية لذلك، كما تنمو موهبة الخطابة بعد معرفة قواعدها وأصولها، والإكثار من مطالعة أساليب البلغاء والخطباء ودراستها[1].

ويتبيَّن من هذا أنَّ العلاج الوحيد من تهيبك لمثل هذه المواقف هو التدريب والممارسة، وبهما تكتسب الثقة بالنفس والشجاعة، وعندئذ ستفاجأ أنَّك تخاطب الناس بقدر كبير من الأفكار، لم تكن تحسب أنَّك ملم بها، أو أنَّها في مخيلتك حين تواجههم.

من النصائح المهمة التي يمكن أن تقدَّم لك إذا كنت مقبلاً لإلقاء خطبة؛ أن تبحث عن كل شيء حول مناسبة الخطبة أولاً، وما الهدف منها؟ ثم فكِّر ملياً فيما تريد قوله؛ فإنَّ نجاحك في إلقاء خطبة، وإحداث التأثير المرجو على مستمعيك؛ يتوقَّف ـ إلى حد كبير ـ على تحديد هدفك، وحسن إعدادك لها، وتنسيق أجزائها.

(١) على محفوظ: فن الخطابة وإعداد الخطيب، المرجع السابق، ص ١٧.

وسواءً أكان إعدادك ذهنياً، أم كتابياً بصياغة الخطبة وتحريرها، فإنَّ **إعدادها يمرّ بمراحل مختلفة، منها:**

[١] اختيار الموضوع المناسب، وأفضله ما كان موافقاً لما تدعو إليه حاجة الناس في حياتهم، ومرتبطاً بهمومهم وأوضاعهم، ويتعرَّض لمشكلاتهم، ويجيب على تساؤلاتهم. فعلى الخطيب أن ينتهز المناسبات المختلفة للناس، من دينية أو وطنية أو سياسية؛ إذ إن من الطبيعي ألا يستمع الإنسان بعناية فائقة إلاَّ لما يهمه في أمر من الأمور الخاصة أو العامة.

[٢] الإعداد الجيد لموضوع الخطبة قبل إلقائها، وتنسيق أجزائها، وترتيب أفكارها؛ إذ ينبغي لمن يريد إلقاء خطبة أن يكون على علم تام بموضوعه، مدركاً لجوانبه، حتى يكون كلامه فيما يخطب فيه حُجَّة، ويجد المستمع في قوله قيمة، لما يفترض أن يضيف له علماً، أو يبصره بحقيقة، أو وجهة نظر، أو يؤكِّد له معرفة، كما يجد متعة في أسلوبه، وجمال عرضه، وتنسيق لفظه، وقوة بيانه وعارضته؛ فيتأثَّر بكلامه، ويميل إلى رأيه. بينما يتحوَّل موقفه منه إذا اكتشف في كلامه خطأ فادحاً، ويؤدي إلى انصرافه عنه. وحتى لا يجد الخطيب نفسه في موقف كهذا، عليه أن يحرص على فهم موضوع الخطبة بالتفكير فيه، وتصوُّر معانيه وأفكاره. وقد يقتضيه أن يجمع المعلومات اللازمة بموضوعه من المراجع، والدّراسات التي تناولته، أو الأبحاث ذات الصلة بموضوعه، أو استحضار الشواهد والنصوص، ومعرفة مواضع الاستشهاد بها.

[٣] جمع العناصر وترتيبها، وذلك بقراءة ما تجمع لديه من معلومات ونصوص قراءة متأنية، واستيعابها، وتحديد عناصرها، وتنسيقها وترتيبها في ذهنه، أو صياغتها والتأنُّق فيها قبل إلقائها على الناس.

بناء الخطبة

على الخطيب أن يراعي تنظيم أجزاء خطبته، وإحكام ترتيبها، وربط بعضها ببعض، وتقديمها بطريقة منظمة، تعين المتلقي على فهم مضمون الخطبة. ولا يتيسَّر له ذلك إلاَّ بتخطيطها قبل إلقائها؛ إمَّا باختزال أفكارها في نقاط أو عبارات قصيرة تعينه في ترتيب أجزاء الخطبة، وتحول دون نسيانه لجانب منها، وإمَّا بتسجيل أفكارها في جمل كاملة. وأهم أجزاء الخطبة: المقدمة، وعرض الموضوع، والخاتمة.

أولاً: المقدمة:

وهي التي يبدأ بها الخطيب، ويجعلها في صدر خطبته؛ تهيئة لأذهان الحضور لسماع خطبته، وجذباً لانتباههم، وإثارة حماستهم، وإعدادهم للاقتناع بما يدعو إليه في خطبته.

ويتوقَّف قدر كبير من نجاح الخطيب على حسن ابتدائه، وبراعة استهلاله، وقدرته على جذب انتباه سامعيه، وإثارة اهتمامهم به وبموضوعه. ولا شَكَّ أنَّ لحظة وقوف الخطيب أمام الناس تستحوذ على انتباههم؛ فيتطلّعون إليه، ويتلهفون لسماع ما يقدِّمه إليهم، وعندئذٍ يتحتَّم عليه أن يفتتح خطبته بمقدمة مثيرة للانتباه في الحال، كما يدعوه إلى تجويد مقدمته، والعناية بها، وجعلها

جذابة، تشوِّق الحضور إلى سماعها، وتهيئ أسماعهم لما يأتي بعدها، ويزيل بها كره الخصوم له، أو تخفيف حدة نفورهم منه، وإثارة اهتمامهم بموضوعه، ولفت نظرهم إليه، وحملهم إلى الإصغاء لقوله.

ولا يلتزم الخطباء بطريقة معيَّنة في مقدماتهم، فلكل خطيب أسلوبه الخاص به، بل يتنوَّع أسلوب الخطيب الواحد، ويختلف باختلاف الموضوع أو الموقف، **ومن بين هذه الطرق:**

[١] يستحب الاستهلال بحمد الله تعالى، والثناء عليه[(١)]، من نحو ما استفتح به رسول الله ﷺ خطبة حجة الوداع، وهي: (الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله: أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير)[(٢)].

(١) عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يخطب الناس، يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول: من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله ...). أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، وسنن النسائي، ١٨٧٣، وقال ابن القيم (٤٢٥/١): وكان رسول الله ﷺ يفتتح خطبه كلها بالحمد لله . ولُقبت خطبة زياد، أول قدومه إلى البصرة، بالبتراء؛ لأنَّها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد وذكر الله تعالى. انظر: البيان والتبيين، ٦٢/٢، وعيون الأخبار، ٢٤١/١.

(٢) البيان والتبيين، ٢٢٨/١. وانظر: جمهرة خطب العرب، ١٥٥/١، وانظر: خطبة الحاجة في مسند أحمد، وسنن الترمذي، والنسائي، وأبي داود: إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]،

[٢] الإشارة إلى موضوع الخطبة، والتنبيه إلى القصد منها؛ بأن يذكر في صدر خطبته الموضوع الذي سيتناوله إجمالاً من غير تفصيل. وغالب الخطب الدينية، وبخاصة خطب الجمع والمناسبات على هذا النّحو؛ فلو كانت الخطبة عن الزواج ـ مثلاً ـ جاءت المقدمة: الحمد لله الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء. والصلاة والسلام على من كان النكاح سنته.. ونحو ذلك.

[٣] أن يفتتح خطبته بإثارة فضول المستمعين؛ كأن يعمد إلى ذكر جوانب مهمة تتصل بما يتحدَّث عنه قبل الإفصاح عنه، ومثله من حديث رسول الله ﷺ قوله: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ)[1].

وقد يثير فضول الناس وتشويقهم وشحذ أذهانهم؛ بطرح أسئلة في مفتتح خطبته لاستدراج الجمهور إلى التفكير معه، كأن يقول: هل سألت نفسك: ما هي الأضرار التي يمكن أن تصيب الأُمَّة إن تعامل أفرادها بالربا؟ وقد يثير فضولهم، ويأخذ على سامعيه أنفاسهم؛ بذكر أشياء غريبة على نحو ما فعل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، ثم تذكر حاجتك. صحَّحه الألباني، وقال: إنَّها تشرع بين يدي كل خطبة. انظر: مسند أحمد، حديث رقم ٣٧٢٠، ٣٩٢/١. وانظر عن خطبة الحاجة في سنن النسائي، حديث رقم ١٤٠٤، والترمذي، برقم ١١٠٥، وأبي داود، برقم ٢١١٨.

(١) الحديث رواه ابن عباس ﷺ. انظر: البخاري، حديث رقم ٥٩٣٣، والترمذي، برقم ٢٢٢٦.

الحجَّاج أول قدومه إلى الكوفة سنة ٧٥هـ، حين افتتح خطبته بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب[١].

[٤] الابتداء بآية كريمة، أو حديث نبوي شريف، أو حكمة، أو مَثَل سائر، أو بعض أقوال المتقدّمين مما يتناسب مع موضوع الخطبة[٢].

[٥] وقد يبدأ بالحديث عن حادثة مثيرة، أو ظرف طارئ، له علاقة بموضوعه، وقع له، أو لمستمعيه قبل الخطبة؛ فيستخلص مقدّمته من الملابسات الحاضرة، وبما يفرضه الظرف؛ فإنَّ المستمعين يريدون أن يستمعوا إلى التفاصيل، ويصغوا إلى بقية القصة.

ومن شروط المقدمة:

- أن تكون متصلة بموضوع الخطبة أو الموقف، وتمهيداً له.
- أن تكون قصيرة، موجزة، لكيلا يدرك السامعين الملل، أو حتى لا ينشغل ذهنهم بغير المطلوب.
- أن تكون واضحة، لا لبس فيها ولا غموض؛ وذلك بأن تكون سهلة في ألفاظها، قريبة إلى أذهان السامعين في معانيها.

---

(١) جمهرة خطب العرب، ٢٨٧/٢، والبيان والتبيين، ٣٦٧/١.

(٢) على أن ينزّه خطبته عن ذكر حديث ضعيف أو موضوع، بل عليه ألا يذكر نصاً إلاَّ وهو متأكِّد من صحته بعد الرجوع إلى المراجع في هذا الشأن، بل عليه ألاَّ يتكلم في شيء إلاَّ وقد تصوَّره، وعرف حكمه، حتى لا يتبيَّن بعد ذلك خطأ كلامه. وقال الجاحظ [البيان والتبيين، ٧٧/١]: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع؛ آي من القران؛ فإنَّ ذلك مما يورث الكلام البهاء، والوقار، والرقة، وحسن الموقع. قال عمران بن حطان: إنَّ أول خطبة خطبتها عند زياد فأعجب بها زياد، ثم إنّي مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن.

- أن تكون مثيرة، تشوِّق السامعين إلى سماعها، وترقُّب ما بعدها، دون أن يتكلَّف فيها الخطيب؛ حتى لا يثقل على النفس كلامه، ودون أن يكون مبتذلاً، حتى لا تمجه الأسماع.

ثانياً: عرض الموضوع:

يقوم الخطيب بعرض موضوع الخطبة بعد المقدمة مباشرة، وفيه يبيِّن ما يريد أن يتحدث عنه، أو يدعو إليه، ويشرح دعوته، أو وجهة نظره، ويدلِّل عليها؛ بأن يضمنها ما أعدَّه من الأدلة والبراهين والحُجج القوية، ويوضِّحها بضرب الأمثال والقصص ونحوها؛ لتقريب الحقائق إلى ذهن المتلقي، ومن ثم زيادة معلوماته عن الموضوع، وإقناعه واستمالته لتغيير مواقفه واتجاهاته، ويفنِّد آراء مخالفيه بنقض دعاواهم.

ومن شروط عرض الموضوع:

[١] الوحدة الموضوعية: بأن يحصر الخطيب حديثه في موضوع واحد، أو قضية واحدة، حتى لا يتوزّع انتباه السامعين، وينصرفوا عن متابعته؛ إذا خرج مما هو فيه من الحديث إلى قضايا أخرى.

[٢] ترتيب العناصر وترابطها: بأن يرتبّها منطقياً؛ كأن يبدأ بالمعلوم من الأفكار لدى السامعين، لينتقل منها إلى المجهول، اعتماداً على المعلوم، وقياساً عليه، أو يبدأ بالنقطة الأساسية أو المحورية، ثم يتفرَّع منها إلى جوانبها، أو ما يترتَّب عليها من قضايا أو نتائج. على أن يتم الانتقال من نقطة إلى أخرى، ومن جزئية إلى التي تليها انتقالاً طبيعياً. ولا يتم ذلك الانتقال إلاَّ إذا كانت

أجزاء الخطبة وعناصرها مترابطة محكمة، أحسن الخطيب إعدادها، ورتَّب أفكارها.

[٣] الجدة والمعاصرة: وعلى الخطيب أن يتوخى في اختيار موضوعات خطبه ما يهم الناس في حياتهم، ويرتبط بمصالحهم الحيوية، وينبع من حاجاتهم، ويجيب عن تساؤلاتهم، ويتعرَّض لمشكلاتهم، ويهتم بتطلُّعاتهم. ويبتعد في الوقت نفسه عن القضايا التي لا وجود لها في الحياة المعاصرة؛ فليس للناس حاجة إلى إضاعة وقتهم فيما لا يثير انتباههم، ولا يفي بأغراضهم. وعليه أن يبتعد أيضاً عن إعادة الموضوع الواحد وتكراره بغير سبب قوي يستدعي ذلك.

وعلى كلٍّ؛ فإنَّ عرض الموضوع يختلف باختلاف نوع الخطبة، فللدينية أسلوب يختلف عن السياسية، وينتهج الخطيب أمام المحاكم القضائية غير ما ينتهجه في خطبته عند وداع صديق، أو رثاء عزيز. ولكل مقام أو موقف ما يناسبه من الخطب، فالذي يخاطب مؤتمراً علمياً، ويخطب بين علماء أو مثقفين؛ مضطر لسلوك أسلوب يختلف عن أسلوبه فيما إذا وجد نفسه أمام جمهور يجمع بين العامة والخاصة.

ثالثاً: الخاتمة:

هي الجزء الأخير من الخطبة، ويعتني بها الخطباء عناية فائقة؛ لأنَّها آخر ما يعلق بأذهان السامعين من الخطبة، ولما يتركه من أثر واضح في نفوسهم، فتحرِّك عواطفهم، وتركِّز مشاعرهم نحو آرائه، ووجهات نظره التي بنى عليها خطبته.

وتشتمل الخاتمة ـ غالباً ـ على موجز آراء الخطيب التي وردت في خطبته، أو توضيح دقيق لغايته ومرماه من موضوع الخطبة. ويفترض أن تكون أفكار

الخطبة جديدة بالنسبة إلى غالب المستمعين، ويتوقَّع أن يعلق بعضها في أذهانهم، بينما يتدحرج معظمها؛ فعليه عندئذٍ أن يبذل قصارى جهده في ختام خطبته للتركيز على ما يرجو أن يثبت في أذهانهم من أفكاره، ويستعين لتحقيق ذلك بما يستعمله من وسائل الاستمالة التي تتفق وذوقهم ونفسياتهم.

ولهذا؛ يبدو أنَّه ليس من الضرورة تقديم قواعد معيَّنة ينبغي للخطيب ألاَّ يتجاوزها، أو صيغ محددة تناسب جميع الخطب، فالأمر يعتمد كثيراً على: الموضوع، والزمان، والمكان، وعلى نفسية الخطيب أو جمهور المستمعين. ويستحسن بعضهم أن يختم خطبته بآية قرآنية ملائمة للنهاية، أو قطعة شعرية ونحوها.

وسائل التأثير الخطابي

يحتاج الخطيب أن يتخذ من الوسائل ما يمكِّنه من عرض موضوع خطبته عرضاً يؤثِّر في السامعين، ويبث الحياة في قلوبهم، والحركة في عقولهم، وإثارة حماستهم؛ فيجذبهم إليه، ويدفعهم إلى الإنصات له، وتقبُّله بقبول حسن. وما أكثر الناس من حولك الذين تعرف اقتناعهم بجدوى أمر من الأمور، أو أهميته عندهم، أو ضرره عليهم؛ ومع ذلك لا تدفعهم قناعتهم إلى تنفيذ ما يرونه صالحاً لهم، والاندفاع إليه، أو التخلي عما يضرّهم من الأفعال والآراء، أو الاستقامة؛ إنَّهم في الواقع يحتاجون إلى قوة التأثير الخطابي. **من هذه الوسائل :**

[١] الاستدلال:

ويستخدمه الخطيب لإثبات صحة قوله، وتأييد رأيه، وتنبيه الأذهان لما يقصده، وحمل السامعين على الإذعان لما يقول، والتسليم به.

ومن الأدلة التي يمكن أن تحتوي عليها الخطبة:

التعريف:

بذكر خواص الموضوع للحثّ على الأخذ بما يتبيَّن نفعه ، أو التنفير مما يتبيَّن ضرره. وقد يكون التعريف ببيان أنواعه، وذكر أقسامه وفوائده. وقد يكون بتشبيهه بشيء مألوف لدى المتلقي، وأقرب إلى إدراكه، وتجربته، وبيئته؛ فيظهر أوجه التماثل والاختلاف بين الشيئين، على نحو وصف النبي ﷺللمؤمن في قوله: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[1]، وقوله أيضاً: (مَثَلُ المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[2].

وقد يستدلّ على صدق دعواه بعقد صلة بين موضوعه وبين أمر مقبول عند المتلقي، فيقيسه عليه، أو يوازن بين ما يدعو إليه وبين حال يقرُّ به المتلقي، كما في الأمثال والحكم.

العلة والمعلول:

وذلك في حالة تحليل المواقف، وذكر بواعثها ودوافعها لتساعده في الحكم عليها؛ كأن يعتمد على دوافع الجريمة، لطلب تخفيف العقوبة على مرتكبها، أو التشديد فيها[3].

(١) الحديث عن أبي موسى ﷺ، في البخاري، برقم ٢٣١٤، وفي مسلم، برقم ٢٥٨٥.

(٢) الحديث عن النعمان بن بشير ﷺ، في البخاري، برقم ٥٦٦٥، وفي مسلم، برقم ٢٥٨٦.

(٣) انظر: أبي زهرة، مرجع سابق، ص ٣٥.

التعميم والتخصيص:

فيبدأ الخطيب بذكر أمر عام يقرُّ به المتلقي، ويتفق فيه مع الخطيب، ثم ينتقل منه إلى ما يتفرَّع عن مضمونه من قضايا خاصة فيخصّه بالذكر؛ كأن يبدأ خطبته بحكمة بالغة ليبني على إقرار الناس بصحتها وصدقها؛ الإقرار بما يتفرَّع عن مضمونها من قضايا(١).

[٢] الاستدراج:

وهو يقوم على عدم إدلاء الخطيب برأيه في الموضوع، أو بما يعتقده في أمر من الأمور من أول وهلة، ولاسيما في المواقف الخلافية، حتى لا يفاجئ من يخاطبه باعتراض أفكاره وآرائه مباشرة؛ لأنَّ المجادلات الخصامية غالباً ما تقود إلى المشاحنات، واحتداد مزاج المخاطَب، وعناده، فيتخذ حيال الخطيب موقفاً مضادّاً، ومقاومة، لا تجدي معها محاولات إقناعه بعد ذلك. مما يلزم الخطيب ـ في حالة الاستدراج ـ أن يبدي إذعانه لما يراه المتلقي، وموافقته فيما يذهب إليه؛ فإذا شعر المتلقي أنَّ الخطيب موافق له في رأيه، وفي صفه، أقبل عليه بكل نفسه، ووجد كلامه عنده قبولاً، وعندئذٍ يتحوَّل الخطيب إلى تحليل حُجَّته، وتفنيدها، وإظهار ضعفها تدريجياً، حتى يصل به إلى الإذعان والتسليم بحُجَّته، ووجهة نظره.

ومن نماذج الاستدراج في الخطاب، ما جاء في القرآن الكريم في قوله عزَّ شأنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ

(١) انظر: الأدلة الأخرى في: أبي زهرة، مرجع سابق، ص ٣١ وما بعدها.

وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ [غافر: ٢٨].

فهذا الرجل المؤمن لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى، أراد الانتصار له بطريقة يخفي عليهم بها أنَّه يتعصَّب له، وأنَّه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح في هدوء ولطف، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه، ليوهمهم أنَّه لا يعرفه، ثم قال: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، ولم يقل رجلاً مؤمناً بالله، أو هو نبي الله؛ إذ لو قال ذلك لعلموا أنَّه متعصِّب له.. وقدَّم الكذب على الصدق؛ موافقة لرأيهم فيه[1].

[٣] القَصَص:

يلجأ الخطيب ـ أحياناً ـ إلى تقديم أدلته في شكل قَصَصي، وقد يدعوه تأييد دعواه، وتدعيم آرائه إلى الاستعانة بقَصَص الأولين، وسِيَر الأنبياء والمرسلين في القرآن المجيد، أو وضع القَصَص المشابهة لموقفه، وتهدف إلى ما يهدف إليه، وترمي إلى غرض كغرضه، فيشرح بهذه الأمثلة الحية الواقعية، أو ما قرب منها من القَصَص الموضوعة؛ ما يريد من المعاني، مستفيداً مما يتوفَّر في القصة من التشويق، وشد الانتباه، ولما توفِّره من تصوير نواحي الحياة، وعرض الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم حية، وكأنَّك تراهم وتعاشرهم وتحيا بينهم، ولا سيما القَصَص القرآني، وهي ميزة حببت النفس في القصة،

(١) الفخر الرازي: البحر المحيط، ٤٦١/٧. وانظر: الصابوني: صفوة التفاسير، تفسير سورة غافر. وبدوي طبانة: معجم البلاغة العربية، ٢٦٥/١.

فمالت إليها، وتأثَّرت بها، تدفعها في ذلك غريزة حب الاستطلاع، وما يستشرفه المستمع بسببها لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء؛ فالنمط القصصي يعين الخطيب على توضيح مراده من الإقناع الفكري، بذكر المواقف التي توحي للمتلقي بأهمية ما تتضمنه القصة من مبادئ، وتحثّه على تقليدها، أو تنفّره منها، وتدعوه للتفكير والتأمُّل، وتجعله يربط الحوادث بالنتائج، ويتفاعل بها.

[٤] ضرب المثال:

ويلجأ إليه الخطيب لتوضيح أمر معيَّن، وتقريبه من نفس المتلقي، أو تأييد حُجَّته ويساعد المتلقي على تخيُّل المعنى أو تقمُّصه، ويستعمل المثل لجذب الانتباه، أو توضيح المقصود، أو توكيد الموضوع وإبراز أهميته، أو شحذ الذهن للتذكُّر والتفكير. قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٥].

فالمَثَل: قول موجز بليغ، قيل في حادثة، أو قصة، أو مناسبة؛ فيألّفه الناس، ويجري بينهم، ويشيع في أحاديثهم، ويُضرب في الحوادث والأمور المشابهة لِمَا قيل فيها، فيكون تشبيهاً لما يراد توضيحه بأقرب الأمثال شبهاً به، وأكثرها مماثلة له، أو بحال الذي قيل لأجله المثل، ويلتفت المستمع من الأمر الذي يريد الخطيب توضيحه إلى صورة المثل المألوف لديه، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق، فيستقر لديه في رضى وقبول.

ولهذا تُعَدُّ الأمثال من قبيل الأدلة والبراهين في تحقيق مصداق ما يدعو إليه الخطيب، وتأييد صحة افتراضاته وحقائقه، بطريقة قريبة من نفوس المستمعين، واستمالتهم والتأثير عليهم وإقناعهم.

ومن قبيل ضرب الأمثال: أن تشبه أمراً دقيقاً خفياً بأمر حسي مما يعهده الناس في حياتهم اليومية، فإنَّ ذلك يقرِّب الفكرة إلى الذهن، بتحويلها من معنى ذهني مجرَّد إلى صورة حسية مشاهدة. ونجد في القرآن الكريم خير مثال لهذا النوع من ضرب المثل، من ذلك أنَّ الله تعالى قرَّب إلى الأذهان فكرة: (أنَّ أعمال الكافرين التي ظاهرها الخير لا تنفعهم بشيء عند الله تعالى) وعرضها في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩].

ونجد في الآيتين الكريمتين تصويراً لخيبة آمال الكافرين؛ لأنَّهم لم يجدوا شيئاً مما كانوا يحسبونه نافعاً لهم؛ فأعمالهم النافعة في الدنيا ذهبت بدداً، لا ينتفعون بشيء منها، وهذا يعني أنَّهم لن يجدوا مقابل أعمالهم النافعة في الدنيا جزاء يوم القيامة، حينما يكونون في أشد الحاجة إلى هذا الجزاء. ويتضح ذلك من صورة الرماد الذي تعصف به الريح، وتذهب في جهات هبوبها، فلا يبقى منه شيء، وصورة السراب الذي يخيِّل في الصحراء أنَّه ماء، فيتعلَّق به الظامئ الملهوف،

وينخدع به، وكلما جدَّ في الوصول إليه اشتد ظمؤه، وتحرُّقه، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً.

وهكذا واجه القرآن الكريم العرب في استدلاله على صحة دعوته، بمفردات مألوفة لديهم، وخاطبهم بما يقع في محيط تجربتهم الذاتية أو الاجتماعية؛ لأنَّ الإنسان أكثر استئناساً لما يعرفه جيّداً في بيئته، وتنفعل نفسه لما يقع تحت حسّه وبصره[1].

ومن ضرب الأمثال ـ أيضاً ـ سوق الحوادث[2] للعبرة بخاتمتها. وكلما كانت الحادثة قريبة العهد، أو حاضرة في الذهن، كانت أعظم وقعاً، وأوضح عبرة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢]. ويعمل الشعر ـ إذا كان يحتوي على حكمة بالغة ـ نحواً لا يقل عن ضرب الأمثال، لِمَا له من تأثير على المتلقي، ولما يضفيه على القول من القوة والتأكيد. ويصبح بذلك أحد أساليب إثبات الحُجَّة والبرهان للإقناع، وذلك من نحو قول بشار:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتباً ... صَدِيقَكَ؛ لم تَلْقَ الذي لا تُعاتِبُهْ
إذا أنتَ لم تشرَبْ مِرَاراً عَلَى القَذَى ... ظَمِئْتَ، وأيُّ الناس تَصْفُو مَشَارِبُهْ
فعِشْ واحداً، أو صِلْ أخاكَ فإنَّهُ ... مُقَارِفُ ذنبٍ مَرّةً ومُجانِبُهْ

(١) أبو موسى: التصوير البياني، مكتبة وهبة، ١٩٨٠م.

(٢) البهي الخولي: تذكرة الدّعاة، دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م، ص ٧٧.

وقول المتوكل الكنانى:

يـا أيهـا الرجـل المعلِّـم غـيره ... هـلا لنفسـك كـان ذا التعلـيم
تصف الدّواء لذي السقام وذي الضنى ... كيمـا يصـح بـه وأنـت سـقيم
ونـراك تصـلح بالرشـاد عقولنـا ... أبـداً وأنـت مـن الرشـاد عـديم
فابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهها عَـنْ غِّيها ... فَـإذا انْتَهَـتْ عَنْـه فَأَنْـتَ حَكـيمُ
فَهُنَـاكَ تُقبَـلُ إنْ وَعَظْـتَ وَيُقتَـدى ... بِـالقَوْلِ مِنْـكَ وَيَنْفَـعُ التَّعْلِـيمُ
لا تَنْـه عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتيَ مِثْلَـه ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إذا فَعَلْـتَ عَظِـيمُ

[٥] الاقتباسات :

وقد يستعين الخطيب بما يناسب موضوعه من الآيات القرآنية أو الحديث النبوي الشريف، أو ما أُثِرَ عن السلف وأقوال الأئمة، ومن اشتهروا بالحكمة. وذلك لإقناع المتلقي وتأييد قضاياه، وتوثيق آرائه، وتدعيم ما ورد في خطبته من أفكار؛ اعتماداً على ثقة المتلقي بصدق النص المقتبس، وإذعانه له؛ فيسلِّم بما يقدَّم له من غير جدل، ويذعن من غير نقاش.

وقد يلجأ الخطيب إلى الأدلة والبراهين لإقناع المتلقي بصحة النتيجة التي توصَّل إليها، وبحقيقة ما يرمي إليه من دعوى وقضية. وأظهر ما يكون ذلك في الخطب القضائية، إذ لا بُدَّ لكل من المدّعي والمحامي من تقديم الأدلة والبيّنات اللازمة لتأييد دعواه، كما يلزمهما الاعتماد على مواد القانون، وإن كان كل منهما يفسِّر ما يلجأ إليه من المواد تفسيراً يتفق وغرضه.

هذا؛ بالإضافة إلى المثيرات العاطفية بمخاطبة وجدان الجماعة والتأثير في عواطفهم.

الأسلوب الخطابي

يشترط في الأسلوب الخطابي أن يتناسب مع مهمة الخطيب في أداء خطبته، وغرضه في إقناع السامعين بأفكاره، واستمالتهم إلى ما يدعو إليه عن طريق أسلوبه، ومن شروط هذا الأسلوب:

- أن يكون الكلام واضحاً، مفهوماً لمن يخاطبهم من الناس، وذلك بتوخي الأساليب السهلة، واختيار اللفظ المناسب للمعنى المناسب، واستعمال الألفاظ الحية التي يألفها الناس وتجري على ألسنتهم؛ فإذا غمض على المتلقي جانب من الخطبة، يفوت عليه إدراك هذا الجانب، وقد يؤثِّر ذلك على فهمه لبقية الخطبة، أو يؤدي إلى انصرافه عنها، ويضيع على الخطيب ما يرجوه من إقناعه واستمالته.
- تجنُّب الألفاظ الغريبة التي يعلو فهمها على مدارك غالب السامعين، والألفاظ المبتذلة التي يشيع استعمالها على ألسنة بعض الناس في مجالسهم الخاصة، والألفاظ العامية، حتى لا يصعب إدراك مقصد الخطيب باستعماله للألفاظ الغريبة، ولا يضيع جلال معاني خطبته باستعماله للألفاظ المبتذلة أو العامية.
- أن تتضمن الخطبة ألفاظاً مثيرة للخيال، موقظة لذكريات حية في نفوس المتلقين، على أن يلائم بين هذه الألفاظ وبين موضوعه؛ فإذا تحدَّث عن الجهاد اختار ما يناسبه من الألفاظ ذات الجرس القوي، لإثارة المشاعر، وإلهاب الحماسة والشجاعة في المستمعين... وإذا كان يخطب قوماً في

الحثّ على أداء فريضة الحج، ذكر الحرم الشريف، ومقام إبراهيم، والبقيع، وزمزم... وغير ذلك من العبارات التي تثير الوجدان، وتوقظ في النفس معاني سامية[1].

- أن تتناسب الألفاظ مع الموقف وموضوع الخطبة، فلكل موقف ولكل موضوع ما يناسبه من الألفاظ. فتكون جزلة قوية في مجال: التهديد، والفخر، وإثارة الحمية، والحماسة، والحثّ على الجهاد، وتكون سهلة رقيقة مؤثرة في مواقف إظهار الأسى والألم، وهكذا، فإنَّ الخطبة تستمد بعض قوتها في إقناعنا من قوة العبارات المستعملة فيها، والمناسبة للموقف والموضوع.
- أن تكون التراكيب واضحة المعاني، محكمة الصياغة، سليمة من الضعف والتفكُّك والتعقيد اللفظي والمعنوي، مؤدية معاني الخطبة بما يناسبها من الجمال اللفظي والأسلوبي.
- أن تكون الجمل قصيرة، تسمح للخطيب بالتمكُّن من الوقوف، وإحداث الرنين الصوتي الذي يملأ الفم، ويعبِّر عن المعنى، ويقيه من اختلال توازن صوته، فينتقل من النشاط إلى الفتور، كما يقيه من انقطاع نَفَسِهِ وتوقُّفه عن مواصلة الخطبة.
- التنويع في أسلوب الخطبة وأدائها، فيسجع في مواضع التأثير، لتحسين كلامه به، على ألاَّ يتكلف في إيراده، أو يكثر من صوره، وإلاَّ ثقل على النفس قبوله، وضعف تأثيره. ويترسل في مواضع الإقناع، ويعمد إلى

(١) أبو زهرة: الخطابة، ص ٧٦.

التشبيه في تقرير الحقيقة، وإلى المجاز في تصوير الخيال، ويرسل الفكاهة الحلوة من حين إلى حين[1]، ليدفع سام النفوس من الخطبة، إذا جاءت على نمط واحد من الأساليب، ونغمة واحدة من الأداء، ويجدِّد نشاط السامع.

- ترتيب أجزاء الخطبة، والترابط الموضوعي بينها، بحيث ينتقل الخطيب من المقدمة إلى غرضه من الخطبة، والتدليل عليه، ويتخلَّص منه إلى النتيجة، دون أن يشعر السامع بفجوة بين هذه الأجزاء، بل يقوده كل عنصر على ترقُّب العنصر الذي يليه.
- ألا تعلو الخطبة بمعانيها أو أسلوبها على فهم المخاطبين بها؛ بل لا بُدَّ للخطبة أن تكون في موضوع يمكن لغالب المتلقين إدراكه، واستيعاب مضمونه، فإن لم يلتزم بذلك مَلَّ الناس حديثه وانصرفوا عنه، ولم ينفعلوا بما يحدّثهم عنه.
- وعلى الخطيب أن يراعي حالة المخاطَبين النفسية، وما هم فيه من ظرف خاص، ويحاول الارتفاع إلى مستوى توقُّعاتهم، وتلبية حاجاتهم العاطفية، حتى يجد حظه من القبول والرضا؛ فلو حَلَّ موسم الامتحانات النهائية للطلاب، وانشغل الجميع بالإعداد لها؛ فإنَّ الخطيب مطالب بالحديث عن هذه المناسبة الحاضرة في وجدان الجمهور، كذلك لو أظل الناس عيد أو مناسبة؛ فالناس يتأثرون غالباً بما يمرّ عليهم من أحوال: كالحزن أو الفرح ونحوهما؛ ولكل حالة ما يناسبها من فنون

(١) أصول الفن الخطابي، ص ٣٥١.

القول وطرائق التعبير. ومن مراعاة حالة المخاطبين أن يتناسب طول خطبته بمدى إقبالهم عليه واستعدادهم.

- وعلى الخطيب أن يحسن التكيُّف مع الاعتبارات المكانية، كالإضاءة، وحجم القاعة، ودرجة الحرارة، وغيرها. فإذا كان المسجد شديد الازدحام؛ عليه اختصار الخطبة حتى لا يشق على الناس، وإذا انقطع التيار الكهربائي، وتعطَّل مكبِّر الصوت، أو توقَّفت المكيّفات عن العمل، في يوم شديد الحرّ؛ فعلى الخطيب التخفيف سواء في خطبته أو في صلاته[1].

أداء الخطبة

لا يتقيَّد الخطباء بأسلوب واحد في أداء الخطبة، إذ منهم من يلقيها ارتجالاً على البديهة، دون أن يعتمد على قراءة الخطبة من مكتوب؛ لتمكُّنه من الخطابة، واقتداره على موضوعها. أو لأنَّه يجد نفسه في وضع لا يمكنه من الإعداد لخطبته؛ فيضطر لإلقائها دون سابق إعداد. ويمكِّنه الارتجال من إدارة دفة الخطاب بعفوية وتلقائية، وتغيير اتجاه الحديث من أسلوب إلى آخر، وَفق ما يستجد من ظروف، ويتمكَّن ـ حينئذ ـ من رفع درجة التفاعل بينه وبين مستمعيه، وإثارة عاطفتهم، واستمالة مشاعرهم.

ولا يلجأ إلى هذه الطريقة إلاَّ المتمرّسون بالخطابة؛ لأنَّها تعتمد على ما يتيسر للخطيب من استحضار مخزونه من المعلومات، وانتفاء فرصته من توثيق

(١) أحمد بن راشد: فن الكلام، دار جبل الشيخ، الرياض، ص ٣١-٣٢.

أدلته أو التأكُّد من حفظ نصوصه، ولِمَا يعترى هذا النوع من الخطب من ضعف الترابط بين أجزاء الخطبة، ويعتري الخطيب من كثرة التوقُّف أو التكرار.

ومنهم من يلقي خطبته بعد تحضير وإعداد، يدرس فيه موضوع الخطبة، ويتثبت من معلوماته عنه، ثم يكتبها ليلقيها بالقراءة من ورقة. ولا شَكَّ أنَّه بذلك يضمن دقة تعبيراته، ويوفِّر لخطبته جمال الأسلوب، والتأنُّق في العبارة، وسلامة تنظيم الخطبة، ويستطيع أن يقلل من أخطائه، ويبعده عن الإحراج، ويحصر نفسه في حدود موضوعه، فلا يخرج عنه.

ويتوقَّع منه ـ في هذه الحالة ـ أن يلقي خطبته بطريقة حيوية معتمداً على تلوين صوته، وعلى الإشارات والإيماءات. ولكن بعضاً ممن يلجأ إلى الخطبة المكتوبة، لا يستطيع التكيُّف مع مستمعيه، بل يقرأ خطبته بطريقة رتيبة، وعلى وتيرة واحدة، دون انفعال بما يقرأ، أو تمثيل لمعانيه؛ فيصيب المستمع بالملل، وعدم التأثُّر بموضوعه.

وقد يُعِدُّ بعضهم خطبته، ويجمع معلوماتها، ثم يكتفي بتسجيل أهم عناصرها، ونقاطها الرئيسية؛ ليستعين بها أثناء إلقاء خطبته.

ومن الخطباء مَنْ يقوم بإعداد خطبته، والتحضير لها، وكتابتها، ويقرأ ما كتبه مراراً، ويحفظ كثيراً من ألفاظها وعباراتها، وتعلق كل معانيها بقلبه. وعندئذ يلقيها ارتجالاً. ومنهم من يحفظها حفظاً جيداً عن ظهر قلب، أو يحفظ عناصرها، ونقاطها الأساسية.

وعلى كلٍّ؛ فإنَّ كل خطيب يختار ما يناسب مقدرته العلمية، واستعداده النفسي. وإن كان يلزمه ـ في كل الأحوال ـ أن يكون واثقاً بنفسه، ومقتنعاً بأفكاره، وأن يبدى حماسة مناسبة لعرضها، ولا يتأتّى له ذلك إلاَّ إذا تحدّث عن ما يجيّده من الموضوعات، ويعرف تفاصيله بحسن إعداده له، وأن يبتعد في الوقت نفسه من التكلُّف والغلو، وأن يتجنَّب ما يصرف انتباه المتلقي عنه بما يصدر عنه من وقفات طويلة أو نحنحة متكررة أو حركات غير مناسبة كفرقعة الأصابع ونحوها.

والخطيب الجيّد مَنْ راعى حالة المستمعين النفسية، وعواطفهم وما يصلحها من إثارة، وما يناسب استمالتها من أسلوب، فخاطبهم على قدر عقولهم؛ فللكبار قضايا ومواضيع تشغلهم، وللشباب ما يشغلهم، ويحسن تناوله عندهم نتيجة حداثة سنهم، أو لقلة تجربتهم، أو لما توفَّر لهم من علوم ومعارف استقوها من قاعات الدرس، ووسائل المعرفة المختلفة؛ فلا يستجيبون لما يشغل الكبار، ولا يلتفتون إليه. والناس عادة ما يملون وينفرون من الخطيب إن طال كلامه، أو احتوى على ألفاظ نابية أو سوقية، أو كان كثير السباب والشتم للناس، أو يتهجّم عليهم علناً، أو على من لهم صلة به، أو ينقد تصرُّفاتهم وسلوكهم علناً.

وعليه أيضاً أن يراعي حسن الإلقاء، بوضوح نطقه للألفاظ، وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، والسلامة من عيوب النطق، وصون الخطبة عن الأخطاء اللُّغوية والأسلوبية الواضحة، حتى لا تنفر منه الآذان، ويصرف المتلقين عن الاستفادة من مضمونها، والتأثُّر بما فيها.

ومن حسن أداء الخطبة: قدرة الخطيب على تمثيله للمعاني، بتغيير نبرات صوته وطبقاته، سرعة وبطئاً، ارتفاعاً وانخفاضاً، ويلوِّن نبراته قوة ولِيناً، بحسب ما تقتضيه المعاني، وتفرضه الظروف التي تحيط به، وعدد المستمعين، وسعة المكان. والغالب أن ترتفع طبقة صوته أكثر من العادة، بدرجة مناسبة تنفذ إلى أسماع مستمعيه دون أن تزعجهم، حتى يكون للخطبة وقع في نفوسهم، ويساعدهم على الانتباه والاستماع إليها، وتعميق فهمهم لها[1].

وعليه في الوقت نفسه أن تتناسب سرعة صوته في إلقاء الخطبة مع مضمون ما يطرحه من قضية، أو يعرضه من موضوع، فتكون السرعة مناسبة ومعبِّرة عن انفعاله بما يقول، دون أن يضيع بسرعته استيعاب السامع له، أو

(١) عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، حتى كأنَّه منذر جيش، يقول: صبَّحَكم ومَسَّاكم. ويقول: (بعثت أنا والساعة كهاتين) ـ ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى ـ ويقول: أما بعد؛ فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة". أخرجه مسلم، ٥٩٢/٢. قال النووي في شرحه على مسلم (٦/ ١٥٦): يستدلُّ به على أنَّه يستحب للخطيب أن يفخِّم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقاً للفصل الذي يتكلّم فيه من ترغيب أو ترهيب، ولعلَّ اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمراً عظيماً، وتحذيره خَطْباً جسيماً. وانظر: سنن النسائي، ١٨٧٣. وفي: فيض القدير، (١٢٤/٥)، قال الطيبي: "شبَّه حاله في خطبته وإنذاره بقرب القيامة، وتهالك الناس فيما يريهم، بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منهم، يقصد الإحاطة بهم بغتة، بحيث لا يفوته منهم أحد، فكما أنَّ المنذر يرفع صوته، وتحمرَّ عيناه، ويشتدّ غضبه على تغافلهم، فكذا حال الرسول ﷺ عند الإنذار، وفيه أنَّه يسن للخطيب أن يفخِّم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويحرِّك كلامه، ويكون مطابقاً لما تكلَّم به من ترغيب وترهيب.

تتبعه له بسهولة، أو ينتج عن إبطائه في الإلقاء شرود ذهن السامع له، ونفوره منه[1].

وعليه أن يحسن مواطن الوقف بين العبارات، على ما تقتضيه ضروب التعبير من إخبار، أو استفهام، أو تعجُّب، أو استنكار. ويضغط على الكلمات المهمة، أو على المقاطع التي يريد التركيز عليها وتنبيه الناس لها؛ فيؤديها بنبرة خاصة، أو صورة من النطق مختلفة عن أدائه لغيرها من الكلمات أو المقاطع. كما يتوقّف قبل الأفكار المهمة وبعدها، ليزيد في ترسيخها في الأذهان واستيعابها، فإنَّ الصمت المفاجئ له نتيجة تجذب الانتباه، وتجعل الإنسان مترقّباً لما سيتلو ذلك.

وللخطيب أن يوظِّف ـ باعتدال ـ وسيلة الإشارة في خطبته، فيعبِّر بحركات يده، وحركة جسمه، وقد تكون الإشارة بالعينين أو الإيماءة بالرأس، فإنَّها تغني في مواقف معينة ما لا يتوفر للكلام المباشر أن يعبِّر عنه، ولهذا قالوا: (رُبَّ إشارة أبلغ من عبارة). ولا شَكَّ أنَّ لها أثراً كبيراً في نجاح الخطيب، وتحقيق أهدافه؛ إذا أحسن استعمالها بصورة مناسبة في مكانها الصحيح، وكانت ملائمة للمعنى المراد من العبارة. فلا ينشغل عن المستمعين بتقليب ما يقرأ فيه من الأوراق، أو يركِّز في نظره على جانب واحد من المستمعين؛ بل عليه أن يوزع نظره بينهم، حتى يشعر كل واحد منهم أنَّه يخصّه بما يقول ويخاطبه وحده؛ فيزداد ارتباطه به،

(١) ذكرت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ صفة تمهُّل رسول الله ﷺ في كلامه، فقالت: "ما كان رسول الله ﷺ يسرد الكلام كسردكم هذا؛ ولكنه كان يتكلّم بكلام بيِّن فصل، يحفظه من جلس إليه". سنن الترمذي، ٥/٦٠٠.

والانفعال بما يقول. كما ينبغي أن تتناسب تعابير الوجه مع مضمون ما يتحدّث عنه؛ فتدلّ على الألم والتأثُّر الواضح إن كان ما يقوله محزناً أو مؤلماً، وتتهلل أسارير وجهه، وتعلوه الابتسامة، ويبدو عليه الفرح واضحاً إن كان ما يذكره مفرحاً وساراً. وبذلك يجد القبول والتأثير في نفوس السامعين له[1].

ملحق

ننقل هنا باختصار ما جاء في كتاب "زاد المعاد، ١٤٥/١وما بعدها"، لابن قيم الجوزية عن هديه ﷺ في خطبته:

خطبَ ﷺ على الأرض، وعلى المنبر، وعلى البعير، وعلى الناقة. وكان إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، حتى كأنَّه منذر جيش يقول: (صبَّحكم ومسّاكم)، ويقول: (بُعثتُ أنا والساعة كهاتين)، ـ ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ـ [رواه مسلم].

وفي لفظ: كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة: "يحمد الله، ويثني عليه، ثم يقول على إثر ذلك ـ وقد علا صوته ـ: من يهد الله فلا مضل له...

وكان يقول في خطبته بعد التحميد، والثناء، والتشهُّد: (أما بعد)، وكان يقصر الخطبة، ويطيل الصلاة، ويكثر الذكر، ويقصد الكلمات الجوامع...وكان لا يخطب خطبة إلاَّ افتتحها بحمد الله ..

وكان يخطب قائماً، وفي مراسيل عطاء وغيره أنَّه كان ﷺ إذا صعد المنبر؛ أقبل بوجهه على الناس، ثم قال: (السلام عليكم)، قال الشعبي: وكان أبو بكر

(١) خالد القريشي: الإلقاء الخطابي، ٨١.

وعمر يفعلان ذلك، وكان يختم خطبته بالاستغفار، وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن... وكان مدار خطبه على حمد الله والثناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه، فعلى هذا كان مدار خطبه.

وكان يقول في خطبه: (أيها الناس؛ إنَّكم لن تطيقوا ـ أو لن تفعلوا ـ كل ما أمرتم به، ولكن سدّدوا وأبشروا) [سنن أبي داود، ٣٥٤/١، ومسند أحمد، ٢١٢/٤].

وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم، ولم يكن يخطب خطبة إلاَّ افتتحها بحمد الله، ويتشهَّد فيها بكلمتيْ الشهادة، ويذكر فيها نفسه باسمه العلم، وثبت عنه أنَّه قال: (كل خطبة ليس فيها تشهُّد فهي كاليد الجذماء) [سنن أبي داود، ٦٧٧/٢، وسنن الترمذي، ٤١٤/٣].

ولم يكن له شاويش يخرج بين يديه إذا خرج من حجرته، ولم يكن يلبس لباس الخطباء اليوم، لا طرحة ولا زيقاً واسعاً، وكان منبره ثلاث درجات، فإذا استوى عليه واستقبل الناس؛ أخذ المؤذن في الأذان فقط، ولم يقل شيئاً قبله ولا بعده، فإذا أخذ في الخطبة لم يرفع أحد صوته بشيء ألبتة لا مؤذن ولا غيره.

وكان إذا قام يخطب أخذ عصاً فتوكأ عليها وهو على المنبر، كذا ذكره عنه أبو داود عن ابن شهاب، وكان الخلفاء الثلاثة بعده يفعلون ذلك، وكان أحياناً يتوكأ على قوس، ولم يحفظ عنه أنَّه توكأ على سيف .. وكان إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به، ثم رجع إلى خطبته؛ وكان يخطب فأقبل الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ عليهما قميصان أحمران، يعثران ويقومان، فقطع

كلامه، فنزل من المنبر فحملهما فصعد بهما المنبر، ثم قال: (صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، رأيت هذين فلم أصبر). ثم أخذ في الخطبة [سنن أبي داود، ٣٥٨/١، وانظر: سنن الترمذي، ٦٥٨/٥].

وجاء سليك الغطفاني يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فجلس، فقال له: (يا سليك، قم فاركع ركعتين، وتجوَّز فيهما)، ثم قال: (إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب؛ فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما) الحديث عن جابر بن عبد الله [في صحيح مسلم ٥٩٦/٢].

وكان يقصر خطبته أحياناً ويطيلها أحياناً، بحسب حاجة الناس، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة. وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحرضهنَّ على الصدقة، والله أعلم.

و من الأحاديث الصحيحة في صفة خطب الرسول ﷺ

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً، يفهمه كل من سمعه" [سنن أبي داود، ٦٧٦/٢]. وعنها أنَّها قالت: "كان رسول الله ﷺ لا يسرد الكلام كسردكم هذا، كان كلامه فصلاً بيِّناً، يحفظه كل من سمعه" [سنن البيهقي الكبرى، ٢٠٧/٣]. وعنها: "أنَّ النبي ﷺ كان يحدث حديثاً لو عدَّه العادّ لأحصاه"، أي لو عدَّ كلمات حديثه لقدر على الإحاطة بعدده، لقلة كلماته.

وعن أنس أنَّ النبي ﷺ كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه" [صحيح البخاري، ٤٨/١].

وعن جابر بن سمرة قال: "كنت أصلي مع رسول الله ﷺ، فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً"، أي كانت صلاته بين الطول الظاهر والتخفيف الملحق. [صحيح مسلم، ٥٩١/٢]. وعنه قال: "كانت صلاة رسول الله ﷺ قصداً، وخطبته قصداً، يقرأ آيات من القرآن، ويذكِّر الناس" [سنن أبي داود، ٣٥٦/١].

وعن ابن مسعود قال: "كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا"[(١)].

عن واصل بن حيان قال: قال أبو وائل: خطبنا عمار فأوجز وأبلغ، فلما نزل، قلنا: يا أبا اليقظان؛ لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفست[(٢)]؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإنَّ من البيان سحراً). وعن جابر بن سمرة قال: "كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنَّما هن كلمات يسيرات" [سنن أبي داود، ٣٥٧/١].

وفي "مسند الشافعي ترتيب السندي، ص ٤٥٤": "عن عَدِيّ بن حاتم قال: خطب رجُلٌ عند النبي ﷺ فقالَ: مَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، ومَنْ يَعْصِهما فَقَدْ غَوَى، فقال رسول اللَّه ﷺ: (اسْكُتْ فَبِئْسَ الخَطِيبُ أنْتَ).

قال بعضهم: أنكر عليه الرسول ﷺ لتشريكه في الضمير المقتضى للتسوية، وأمره بالعطف تعظيماً للَّه تعالى، بتقديم اسمه، لكن يردّ على هذا أنَّ

(١) يتخوّلنا بالموعظة: يتعهّدنا مراعياً أوقات نشاطنا، ولا يفعل ذلك دائماً، "كراهة السآمة": لا يحب أن يصيبنا الملل [صحيح البخاري، ٣٨/١].

(٢) فلو كنت تنفست: أي أطلت قليلاً، "مئنة" أي علامة [صحيح مسلم، ٥٩٤/٢].

مثل هذا الضمير تكرَّر في الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: (أن يكون اللَّه ورسوله أحبّ إليه مما سواهما). فالجواب الصحيح أنَّ الخطب يقتضي مقامها البسط والإطناب، ليفهم عن الخطيب ما يقول، بخلاف المقامات الأخرى كالتعليم؛ الذي يتطلب الحفظ، ويناسبه الإيجاز. ولذا ثبت أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان إذا تكلَّم كلمة أعادها ثلاثاً ليفهم القوم، فالذي دعا لتقبيحه هو هذا الإيجاز في مقام الوعظ والبيان. ثم قال رسول اللَّه ﷺ: (مَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، مَنْ يَعْصِ اللَّهَ ورسُولَهُ فَقَدْ غَوَى، ولاَ تَقُلْ ومَنْ يَعْصِهِما).

وفي "صحيح البخاري، ٦/٢٥٠٣": "قال عمر ﷺ ـ وهو يحكي طرفاً من الأحداث التي مرَّ بها المسلمون عند اختيار أبي بكر للخلافة في سقيفة بني ساعدة ـ: "فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فلما جلسنا قليلاً تشهَّد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال. فلما سكت أردت أن أتكلَّم، وكنت قد زورت[1] مقالة أعجبتني، أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلّم؛ قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه، فتكلّم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلاَّ قال في بديهته مثلها، أو أفضل منها، حتى سكت.

(١) زورت: من التزوير؛ وهو: التحسين، والتزيين، والتهيئة، وحسن الإعداد. "أداري منه بعض الحد": أدفع عنه بعض ما يعتريه من الغضب ونحوه. "على رسلك": اتئد واستعمل الرفق. "أوقر": أكثر وقاراً، وهو الرزانة عند الطلب، والتأني في الأمور. "بديهته": هي سداد الرأي عند المفاجأة والمعرفة؛ يجدها الإنسان في نفسه، من غير إعمال للفكر، ولا علم بأسبابها.